الأخصائية النفسية السعودية موضي الزهراني :

حاورتها : ناهد باشطح (السعودية)

الهوّة النفسيّة بين الفتاة وأسرتها، أهم أسباب الإنحراف لدى المراهقات

يقول "مونتين" إن للتربية سيطرة علينا أكثر مما للطبيعة نفسها. من هنا فعندما نتحدث عما يخالف الطبيعة من انحرافات النفس البشرية، فنحن إنما نتحدث عن التربية ودور الأسرة في رعاية أبنائها خاصة في مرحلة المراهقة التي هي من أهم مراحل حياة الإنسان. وفي هذا الصدد التقينا الاستاذة موضي الزهراني المشرفة النفسية في وزارة العمل والشئون الاجتماعية / مكتب الاشراف النسائي الاجتماعي / بمنطقة الرياض، للحديث عن أهمية مرحلة المراهقة وأسباب انحراف المراهقات، فكان هذا الحوار.

ماهي الأسباب التي تدفع الفتاة إلى الإنحراف؟

إن أسباب انحراف الفتيات كثيرة، ولكن من أهمها تلك الهوة النفسية بين الفتاة وأسرتها في مرحلة المراهقة.

ثم إن هذه المرحلة مسماها مشتق من الإرهاق الجسدي والنفسي، ويقال أرهقه الأمر بمعنى أتعبه واحتمل منه مالا يطيق وهذا ما تتعرض له الفتاة من ضغوط نفسية تتعلق بمتطلبات هذه المرحلة والأسرة غالبا لم تهيئها لذلك. وفيما يتعلق بهويتها الشخصية "كأنثى" والتي تتطور أكثر في هذه المرحلة، يحدث أن تركز بعض الأسر -للأسف- على التغيرات الجسدية، و تهمل التغيرات النفسية ، مما يسبب أزمة مراهقة تظهر على شكل جوع حسي. فتهفو نفس الفتاة لكي تجرب وتحس وتسمع وتنظر لكل شيء، والغاية من هذه الطفرة الحسية كسب نفسي يزداد أكثر وأكثر. وفي غفلة من الأسرة، وخاصة المفككة تندفع الفتاة لإشباع هذا الكسب من خارج أسوار بيئتها الصغيرة وخاصة عندما لا تجد نفسها فيها، وتجدها خارجها مع صديقاتها، أو من خلال "شلّة" تشبع لها حاجتها للاستقلالية .

"تركز بعض الأسر -للأسف- على التغيرات الجسدية، و تهمل التغيرات النفسية ، مما يسبب أزمة مراهقة تظهر على شكل جوع حسي فتهفو نفس الفتاة لكي تجرب وتحس وتسمع وتنظر لكل شيء"

وعندما نركّز على أن معاناة المراهق " معاناة جنسية ونفسية "وتقوم على إشباع استفهامه التقليدي " من أكون " ؟ ونضع في اعتبارنا أن بعض الأسر تتعلق بأبنائها تعلقا عصابيا يسبب لهم القلق، ويرفضون استقلالهم عنهم لمجرد بلوغهم، ورفض بعض الأسر ما تتطلبه هذه المرحلة من تهيئة جنسية وعاطفية، أو رفضهم حتى الاعتراف بذلك لخبرات أليمة قد مروا بها في هذه المرحلة، يمكن أن نتصور سيطرة السلوك الجنسي لهذه المرحلة على بعض الآباء والأمهات، وتبدأ مخاوفهم في فرض حصار على أبنائهم وخصوصا الفتاة في مجتمعاتنا العربية التي تتفاوت في درجة التحفظ. وفي حالة سيطرة هذا السلوك على تفكير الأسرة، واتهامها لفتاتها برغبات جنسية هي بعيدة عنها ، فإنهم يسببون لها حياة قلقة وصراعات من شأنها أن تؤثر على بناء شخصيتها، فتلجأ لمصادر متعددة لإشباع استطلاعها عن حاجات هذه المرحلة الجنسية والنفسية والتي أهملت أسرتها إشباعها حيث لم تتفهم نفسية المراهقة وتساندها عاطفيا.

"وفي حالة اتهام الأسرة لفتاتها برغبات جنسية هي بعيدة عنها . فإنهم يسببون لها حياة قلقة وصراعات من شأنها أن تؤثر على بناء شخصيتها، فتلجأ لمصادر متعددة لإشباع استطلاعها"

ومصادر الاشباع هذه يمكن أن تحصل عليها المراهقة من خلال مكالمة هاتفية مع شاب في سنها، أو مع رجل أكبر منها بسنوات ومن هواياته صيد الصغيرات الغافلات، أو من خلال هروبها من أسرتها التي كبلتها بالضغوط النفسية وأثارت غريزتها النائمة بدون إشباع لعاطفتها المتقدة حينها. ويرميها هروبها هذا بين مخالب بشرية لن ترحمها مابين استغلال جسدي، ومخدرات، وضياع قد تتقبله في البداية لإشباع حاجتها للاستقلالية عن أسرتها ، لكنها في نهاية المطاف تدفع الثمن غاليا.

"انحراف الفتاة لا يدعمه إلا جو أسري مفكك، أو تربية ضاغطة، أو أسرة بيئتها منحرفة"

وأؤكد أن انحراف الفتاة لا يدعمه إلا جو أسري مفكك، أو تربية ضاغطة، أو أسرة بيئتها منحرفة لا تجد الفتاة مفرا من الخضوع، أو التقليد الأعمى، أو الاستسلام لرغباتها التي تمنحها رقما في سجل المنحرفات.

البعض يهتم كثيرا بتأثيرالعامل البيولوجي على معدل الانحراف ويقلل من تأثير علاج المنحرف ما دام أحد الوالدين في الأسرة منحرفا، ما قولك في ذلك ؟

للوراثة دور كبير في تكوين الجهاز العصبي والجهاز الهرموني وغيرها من أجهزة الجسم والتي لها دور كبير في تحديد الاستعداد السلوكي، ولقد فسر ذلك الدراسات التي أجريت على التوائم المتطابقة وراثيا بالذات، وكذلك القدرات العقلية للوراثة دور هام فيها، وفي التوجيه النبوي الكريم أصدق المعاني " اختاروا لنطفكم فإن العرق دساس". وهذا يحمل الوراثة الدور في توارث الأجيال "الصفات الخارجية والداخلية". و لكن لا ينبغي أن نغفل العوامل الأخرى التي تزيد من نسبة الانحراف أو تقلل منها مثل أسلوب التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة، الاستقرار أو التفكك الأسري، القيم الدينية، الضغوط النفسية والبيئية، والفقر، وعدم اتزان الشخصية، وانخفاض الذكاء، الأزمات والعقبات النفسية، وسائل الإعلام، الأصدقاء، والمناخ المدرسي، ومتطلبات العصر التي قد تفوق قدرة المراهق، ونستسلم لعامل الوراثة ونجعله الشماعة التي نعلق عليها أخطاء وقصور التربية... إذ لابد من النظرة التكاملية للعوامل المؤثرة على معدلات وتفسيرات الانحراف.

وإن كانت بعض الدراسات النفسية المفسرة لأسباب الانحراف أشارت إلى أن الوراثة تلعب دورا أقل أهمية من البيئة التي قد ينمو فيها السلوك الانحرافي في حالة وجود ما يساعد على ذلك، ويقال إنه لايمكن أن يولد إنسان وأن يكون حتما منحرفا بسبب وراثته. ولكن في بعض الحالات المنتقاة للدراسة قد تتوفر فيها بعض العوامل الفسيولوجية والعقلية التي تزيد من احتمالية التعرض للانحراف مثل " ضعاف العقول "...حيث ترتبط تلك الضغوط المشجعة على الانحراف بأوجه النقص في الشخصية لتلك الحالات.

وقد أطرح لك مثالا من الواقع يفسر ضعف العامل الوراثي، وان كانت الدراسات العلمية شحيحة في هذا المجال على المستوى المحلي، إلا أنه من خلال تجربتي في التعامل مع بعض الفتيات المنحرفات كأخصائية نفسية في بعض المؤسسات الإيوائية، لا تنحدر الجانحات بالضرورة من عائلة منحرفة وراثيا فقط، بقدر ما أنهن آتيات من عائلة مفككة، أو مهملة، أو أسر متشددة تفرض حصارها النفسي والعاطفي بكل قوة على بناتها، أو أسر دورها الحقيقي غائب عن مواكبة التغيرات الفزيولوجية والنفسية التي تتعرض لها فتاتها والتي تلجأ بدورها للخارج لإشباع احتياجاتها العاطفية والجنسية، أيضا الأطفال غير الشرعيين لأمهات لهن تاريخ متكرر في الانحراف، نشأوا في مؤسسات ايوائية، أو لدى أسر بديلة، ليس بالضرورة جميعهم لديهم نزعة انحرافية، بل ترين تفاوتا كبيرا بينهم في تقبل وضعهم الاجتماعي وخاصة الذين توفرت لهم عناصر مساندة عاطفيا ونفسيا، وإن ظهر لدى البعض منهم استعدادا واضحا للانحراف تجدين هناك خللا واضحا في دور البيئة الاجتماعية التي عاشوا فيها، وقصورا واضحا في كيفية إشباع احتياجاتهم للأمن النفسي والعاطفي. فالإنسان قد يكتسب صفات جميلة أو سيئة عن طريق التربية منذ الصغر.. وكما قال عالم الوراثة الروسي ميتشورين " إننا يمكننا التدخل في تحسين نوع الإنسان وموروثاته ونصنع أجيالا أفضل دائما، فلا ينبغي لنا أن ننتظر التحسينات من الطبيعة بل علينا أن ننتزعها انتزاعا وندفع الإنسان إلى التغير للأفضل".

من المعروف أن طرق التربية في المجتمعات العربية تجنح إلى التمييز ضد الفتاة، ما تأثير ذلك في فروق طرق الانحراف بين الجنسين؟

إن التربية التي تتلقاها البنت تختلف بلاشك عن تربية الولد. فبينما يعزز بداخلها الاستعداد للحياة الزوجية واهتمامها بمهاراتها كامرأة لجذب الرجل بطرق تختلف من بيئة لأخرى نرى أن الولد تعزز بداخله القيادة والاستقلالية والرجولة حتى وان كان طفلا أو في مرحلة المراهقة المبكرة. لذلك تجدين عندما تتمرد الفتاة وتهرب خارج أسوار أسرتها، يكون ذلك بسبب رجل دخل إلى حياتها بالخطأ وفي غفلة من أسرتها، حتى وان انضمت لرفيقات منحرفات من سنها وساعدنها على التمرد الاجتماعي والاتجاه في طريق الانحراف، لابد أنك تجدين ظلا لرجل في حياتهن. وفي ظل التربية التقليدية قديما كانت نسبة الهروب من الأسرة "بحثا عن الحب " هي الغالبة على الفتيات والتي تنتهي بالإيداع في مؤسسة الأحداث منذ خطوتها الأولى. أما الشباب، فقد تجدينه منحرفا ويمارس سلوكيات شاذة عن تقاليد أسرته لكن من السهل أن يشعر بمكانته الاجتماعية بينهم، ويتقبل والداه ذلك ويسعيان جاهدين لتعديل سلوكه، بعكس الفتاة التي قد تتخلى عنها أسرتها بسهولة، أو تفرض عليها زوجا يكبرها بأعوام من أجل تغطية انحرافها. وفي ظل التربية الحديثة، التي لا تدرك أسسها كثير من الأسر العربية، اختلفت صور الانحراف السلوكي مابين الجنسين، وبدأت الفتاة تتجه لسلوكيات لا يتوقعها المجتمع العربي كإدمان المخدرات، والسرقة، والتزوير، وانتحال الشخصية، والعنف الجسدي، وإشعال الحرائق، وتصنيع الخمور. وهذه السلوكيات الشاذة يمارسها الأولاد أكثر من البنات سابقا، لكني أرى الوضع قد اختلف مع التغيرات المعاصرة وأصبح للظروف الاجتماعية دور كبير في إيجاد نزعة تمردية في نفس الفتاة مما يدفعها للعصيان والخروج عن السلطة وإثبات قوتها على الانتقام حتى من أقرب الناس لها " أسرتها "، كما تلجأ الفتيات إلى سلوكيات تغلب عليها الصفات الذكورية المنافية لصفاتها، لأنهن يردن قول " إننا قادرات على ما يقوم به الذكور من سلوكيات حتى وإن كانت منحرفة".

> "أصبح للظروف الاجتماعية دور كبير في إيجاد نزعة تمردية في نفس الفتاة مما يدفعها للعصيان والخروج عن السلطة واثبات قوتها على الانتقام"

> "أشارت دراسة اجتماعية إلى أن نسبة 12-15٪ من المجتمع السعودي معرضين للإكتئاب وأن عددا كبيرا من الطالبات والطلاب يعانون من الرهاب والخوف"

من خلال عملك في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية كيف ترين الدور الوقائي في المؤسسات الاصلاحية ؟

مازال الدور الوقائي للمؤسسات الإصلاحية يحتاج إلى إعادة نظر، فهي قد تركز على تأهيل الفتاة اجتماعيا ونفسيا بعد وقوعها في الخطأ، وتقوم بدورها كبيئة إصلاحية مع الفتاة من خلال الأخصائيات الاجتماعيات والمرشدات الدينيات والتربويات، وإعداد البرامج الهادفة لامتصاص المشاعر السلبية، والإحساس بالظلم، ومشاعر القلق من موقف الأسرة والمجتمع، وقد تقدم للفتيات المنحرفات لأول شمرة العديد من التسهيلات التي تعيدها لأسرتها كعضو مرغوب فيه من خلال مقابلات الأسرة ودراسة ظروفها وأوضاعها من جميع الجوانب للوقوف على أسباب الانحراف لمعالجته. وهناك أيضا برامج للرعاية اللاحقة لمن تنتهي مدة الحكم عليها لقضية ما، لكن مازال هذا الدور قاصرا ويستحق دراسات مستفيضة في مجتمعاتنا العربية، خاصة عندما تكون الأسرة هي أحد أسباب الانحراف ، ومع ذلك فهي ترفض أي تدخل خارجي لمتابعة وضع الفتاة بعد العودة إلى الأسرة. وهذا البرنامج أيضا لا يحظى أفراده بأي حماية قانونية لو تعرضوا لأي إيذاء أو رفض شديد من بعض الأسر المحافظة جدا، لذلك يكون الدور الوقائي لبعض الأسر المهددة بانحراف بناتها قاصرا في ظل بعض القيم الاجتماعية المحافظة جدا، إلى جانب قلة الكوادر المتخصصة في مجال الانحراف ورعاية المنحرفين في المؤسسات الإصلاحية والتي يتطلب منها الانفتاح على المجتمع الخارجي والتواصل مع الجهات التربوية والإعلامية والخيرية لإعداد برامج التوعية من منطلق واقع العمل اليومي مع فئة "الأحداث". لكن ما نراه للأسف هو التركيز على البرامج العلاجية الداخلية للفئة المستهدفة في المؤسسة، أما البرامج الوقائية فهي شحيحة ولا يكاد المجتمع الخارجي بمؤسساته المختلفة أن يلمسها أو يشعر بها لكي يتجاوب معها، ويأخذ حذره من الوقوع في مصيدة الانحراف. فلقد أشارت دراسة اجتماعية إلى أن نسبة 12-15٪ من المجتمع السعودي معرضين للإكتئاب وأن عددا كبيرا من الطالبات والطلاب يعانون من الرهاب والخوف، وطالبت الدراسة بأهمية التوعية النفسية وتوضيح أسباب وحلول المشكلات والاضطرابات النفسية المتكررة في هذه المرحلة.

دعينا ننتقل من دور الاصلاحيات المحدود في عملية الوقاية، إلى الدور ذاته في الأسرة فما هو دورها في عملية وقاية الفتاة من الانحراف ؟

تؤكد الدراسات الاجتماعية والنفسية أن الأسرة هي المسؤولة عن تكوين أخلاقيات الفرد بوجه عام، وهي التي تغذي طفولته بالأمن والطمأنينة، وتبعده من الاضطراب المبكر، وتدربه على التجاوب مع المواقف الإنسانية التي تبرز عواطفه الكبيرة " كالحب والخوف والقلق " وتغذي فيه حب الحياة، وحب الآخرين، والتسلح بالقيم والمبادئ التي تربطه بمجتمعه الصغير. وفي حالة حدوث ما يؤثر على كيفية أداء هذه المسؤولية مثل " أسلوب التنشئة المضطهد لشخصية الطفل، أو انفصال الأبوين، أو سجن أحدهم، أو موته، أو سيطرة الشقاء العائلي على حياة الأسرة، أو انعدام الضابط الاجتماعي،" نجد أن المجال يكون خصبا لمشاعر القلق والتوتر التي تسيطر على الفتاة، فتدفعها للبحث عن مصادر تشبع حاجتها للإحساس بالأمان، والحب، والقيمة الشخصية. ولقد أثبتت الكثير من الدراسات الاجتماعية على أن المنحرفين علاقتهم العاطفية ضعيفة بأسرهم أكثر من غير المنحرفين. لذلك فان دور الأسرة الوقائي عظيم جدا، ولكي تنجح في الحد من انحراف أبنائها لابد من تنشئة سليمة تقوم على مبادئ الشريعة الإسلامية، والتربية النبوية القائمة على المودة والتراضي والعدل في تطبيق الحقوق وإشباع الحاجات النفسية والاجتماعية. وأن لا تتردد الأسرة في عرض أبنائها من المراهقين على العيادات النفسية التي مازال الكثير يعدونها وصمة عار، حيث أشارت إحدى الدراسات أن 20٪ من المراهقين في المجتمع السعودي يعانون من اضطرابات نفسية أو العنف أو اللجوء للتدخين أو المخدرات، وهذا ما يتطلب التحرك السريع والواعي من الأسر تجاه مراهقيها.

إذن في ظل غياب الرعاية الأسرية، ما هي الأسباب التي تدفع الفتاة بعد خروجها من دار الرعاية إلى العودة إليها بنظرك ؟

من خلال تجربتي الشخصية مع بعض الفتيات اللائي تعرضن للانحراف، لاحظت أن الفتاة التي تعيش بداخل أسرة مفككة ومنحرفة من السهل عودتها للمؤسسة، حتى وإن قامت المؤسسة بدورها في العلاج خلال تواجدها فيها. أما اللاتي تعرضن للانحراف لأول مرة باسم " الحب" وخديعة الرجل لها، واستغلاله لبراءتها وسذاجتها لمرحلتها العمرية الصغيرة، ولرغباتها الجنسية التي تسيطر عليها في مرحلة المراهقة، فإنها نادرا ما تعود للمؤسسة، أو تكرر هروبها من أسرتها لأنها تلقت درسا وصدمة قوية تظل عالقة بتفكيرها ومصيرها كامرأة لها احتياجاتها الأنثوية خاصة عندما تساندها أسرتها وتغفر لها وتحمل نفسها كأسرة مقصرة 50٪ من انحراف ابنتها.

من خلال رسالة الماجستير التي أعددتها عن الأطفال اللقطاء، تطرقت إلى أهمية الأسرة في حياة اللقيط الذي يعيش في المؤسسة الايوائية، أرجو ذكر النتائج التي توصل لها بحثك؟

تناولت الرسالة وعنوانها" دراسة مقارنة بين الأطفال اللقطاء والأطفال العاديين في مفهوم الذات"، وطبقت على الأطفال في المؤسسات الإيوائية في مدينة الرياض، وأطفال في أسر بديلة، وأطفال عاديين في بعض المدارس الحكومية والأهلية. وأشارت نتائج الدراسة بعد تطبيق المقاييس النفسية التي قمت بإعدادها بالصور للذكور والإناث للمرحلة العمرية من (7-12)، أن هناك فروقا دالة بين الأطفال العاديين والأطفال اللقطاء في مفهوم الذات لصالح العاديين وبالذات على بعد القلق. ومن البديهي أن يتعرض أطفال المؤسسات لضغوط نفسية واجتماعية تشعرهم بالقلق والتوتر، وذلك للبيئة المؤسسية التي يعيشون فيها، وإن كانوا ينعمون بتحقيق جميع متطلباتهم المادية من مأكل ومشرب وملبس، ومسكن وكوادر متخصصة ومربيات، إلا أنهم يعيشون في دوامة السؤال عن حقيقتهم الاجتماعية، وتسيطر عليهم نظرة المجتمع الرافضة لهم كفئة مجهولة النسب، وحتى من يعيشُ بداخل أسرة بديلة، يشعر بالفرق بينه وبين أطفال هذه الأسرة عندما يبلغ مرحلة السؤال " سن الدخول للمدرسة " ويكفيه اختلاف اسمه عن اسم العائلة التي عاش فيها منذ طفولته المبكرة. وهذا يعطينا دلالة قوية على أهمية دور الأسرة الوقائي في الحد من نسبة انحراف فتياتها، وتعرضهن لتجارب أليمة تتمثل في الحمل غير الشرعي، وإنجاب طفل لاحول له ولا قوة ينضم إلى لائحة اللقطاء.

نحو مراهقة آمنة

أطلقت جمعية المستقبل النسائية البحرينية مؤخرا، برئاسة الأستاذة فضة ناصر مشروعا جديدا تحت اسم "نحو مراهقة آمنة" وهو مشروع يستهدف الفئة العمرية بين 12 و18 سنة، قصد إيجاد حلول عملية وفعالة لمشاكلها المختلفة، ومساعدة الأهل والمراهقين أنفسهم على قضاء هذه الفترة الحرجة من العمر بسلام.

ووضعت الجمعية 11 هدفا لمشروعها، من أهمها العمل على توعية المراهقين وتثقيفهم في كل المواضيع التي تهمهم، وإيجاد برامج نوعية لملئ أوقات فراغهم لاستثمار الطاقات الكامنة لديهم وتنميتها، وإعداد المحاضرات وتنظيم ورش العمل والندوات عن المراهقة وكيفية التعامل معها بمشاركة المراهقين. وعلى المدى المستقبلي تفكر الجمعية في إنشاء مركز المشورة للمراهقين.

وبالإضافة إلى جمعية المستقبل النسائية، المتعهد الرسمي بالمشروع، والتي اقترحت إعلانا ببريدها الإلكتروني لتلقي المشاكل الملحّة للمراهقين من الجنسين، والتخطيط لبرنامج عمل يهدف إلى حل هذه المشاكل، تعتبر بعض الجهات الأخرى جهات معنية بالمشروع أيضا مثل وزارة التربية والتعليم، ووزارة الصحة، ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية، ومؤسسات المجتمع المدني. لذلك تعمل الجمعية على الحصول على أسماء المشرفين الاجتماعيين في كل المدارس لمناقشة فكرة المشروع وتبادل الآراء والخبرات معهم، والاتصال بالأخصائيين النفسيين بغرض التنسيق والتعاون معهم، وكذلك الاتصال ببعض الجمعيات مثل جمعية الطفولة، وجمعية رعاية الأمومة والطفولة، وجمعية تنظيم الأسرة.

كما تعتزم جمعية المستقبل النسائية تخصيص مساحة في الجريدة الأسبوعية للجمعية تطرح فيها كل ما يخص المراهقين من معلومات وأخبار وأنشطة تقوم بها الجمعية أو غيرها من الجمعيات الأخرى، وينشر في هذه المساحة البريد الإلكتروني للجمعية ليتسنى للمراهقين التفاعل مع ما يكتب عنهم، مع العمل مستقبلا على تحويل هذه المساحة لمنبر أو بريد للمراهقين، تتولى الجمعية الرد عليه بالاستعانة بالأخصائيين، كل في مجاله.